لغة الشعراء

لسع زنبورٌ عبد الرحمن بن حسّان ، فجاء أباه يبكي ، فقال له : مالك ! فقال : لسعني طائر كأنه ملتفٌ في بُرْدَي حبرة ، قال حسّانٌ : قلت والله الشعر !

على هذا النحو يرى حسّان بن ثابت أن الشعر إنما هو كلّ نمطٍ من الكلام لا يخلو من التصاوير ، فكأن الكلام الذي يخلو من مثل هذه التصاوير ليس صاحبه بشاعر ، فمن قول أبي فراس في بعض شعره :

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي وما أنا مدّاح ولا أنا شاعر !

أصحيح أن أبا فراس ليس بشاعر ، انه شاعر كل الشاعر ، ويرى إمام من أئمة البيان في هذا العصر أنه في بعض شعره أشعر من المتنبيء ، فلماذا نفى الشاعرية عن نفسه ؟ أظن ، والله أعلم ، أن الشعر في نظر أبي فراس وفي نظر كثير من رجال الأدب إنما هو نوع من المبالغة في تصوير فكرة أو عاطفة ، وأبو فراس لمّا نطق بفضله وامتدح عشيرته لم يبالغ في هذا النطق وهذا المدح ، أي لم يقل إلاّ الحق المجرّد ، فلم يفرغ فكرته المجرّدة في صورة محسوسةٍ فيها شيء من المبالغة ، لأنها في غنىً عن كل غلوّ ، فهي ناطقة بنفسها ، فاذا قال : ولا أنا شاعر ، فانه يعني بذلك أنه ترك فضله على سجيته ، لم يحسّنه بصورة من الصور حتى يكون كلامه شعراً .

فالشعر ، في نظر حسان ، وفي نظر أبي فراس ، يحتاج الى ألوان وأشكال ، أي الى صور محسوسةٍ حتى يكون شعراً ، فاذا قال ابن حسان : لسعني زنبور ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ووقف ، أو إذا قال أبو فراس : نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي ، ولم يمزج هذا النطق ، ولم يقرن هذا المدح بصورة من الصور ، إذا قال كل واحد منهما قوله على سجيته دون شيء من التزويق فهو ليس بشاعر ، فلا بدّ في الشعر بحسب رأيها من تشبيه أو استعارة أو غير ذلك ، فكأن الزنبور لا يحسّ ابن حسان بلسعته إلاّ إذا كان ملتفاً في بُرْدي حبرة ، فإذا التفّ الطائر في هذين البردين ، وظهرت ألوانها الزاهية كان الشعور باللسعة أقوى .

ومن أجل حمل الناس على مثل هذا الشعور القوي لجأ بعض المؤرخين في كتبهم الى لغة الشعراء .

إذا تصفحنا تراجم المؤرخين الفرنسيين في القرن التاسع عشر وجدنا أن طائفة منهم ظهرت على لفتهم آثار الشعر ، آثار هذه الصور التي استعملها ابن حسان في بكائه من لسعة الزنبور ، فالمؤرخ Thierry يرى أن كتابة التأريخ لا بدّ فيها من أسلوب ملوّن لإحياء عصر من العصور ، فاذا قيس هذا المؤرخ بمؤرخ آخر في عصره تبيّن انه اذا احتاج الى بعض الفلسفة في تأريخه اعتاض عنها فنّ القصص والوصف ، ولا شك في أن الوصف يستلزم لغة الشعراء ، وهي لغة التصوير .

وقد جاء بعد Thierry مؤرخ آخر وهو : Michelet ، الذي يرى أن التأريخ إنما هو معرض تشيع فيه الحياة والشعر ، وقد دفعت نظرته الى التأريخ من هذه الزاوية بعض رجال النقد إلى أن يعيبوه بأنه لا يقابل ولكنه يصف ، ولا يحلّل تحليلاً فلسفياً ، فلا يُعنى بتسلسل الأسباب ، ولا يربط النتائج بالمقدمات ، ولكن التأريخ في مذهبه إنما هو ضرب من الإحياء ، إحياء للعصور والمدن والرجال ، والإحياء لا غنى له عن لغة الشعر ، أي عن الصور ، وقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أنزلوه بعد « فيكتور هوغو » بمنزلة الكاتب الذي رزق في القرن التاسع عشر موهبة الصورة واللون .

من كل ما تقدّم نستنتج أن لغة الشعر تميزت عن لغة النثر بالأمور المحسوسة ، أي بالألوان والأشكال ، بالصور ، فمن جملة شروط الشعر ، فضلاً عن الأوزان التي تضبط الفكرة والعاطفة شيوع الصور فيه ، فلا بدّ من تشبيه كتشبيه جناح الزنبور ببُرْدَي حبرة ولا بدّ من استعارة أو من وجه من وجوه البديع ، فالشعراء يعيشون في عالم يختلف عن العالم الذي يعيش فيه الناس ، انهم يخلقون لأنفسهم آفاقاً تكثر فيها الأشكال والألوان والأصوات ؛ وهي آفاق محسوسة ليس فيها شيء من التجريد الذي يستوجب جهد الذهن في إدراك الحقيقة وجوهرها ؛ ولهم في عالمهم لغة خاصة ، وقد يجدون لذّةً في العيشة في هذا العالم ، وعلى قدر تمكنهم من خلق الصور في شعرهم ، ومن الاهتداء الى لغة هذه الصور ، يكون تمكنهم من نفوس الناس والتغلغل في بواطنها والتأثير في شعورهـا .

هذه جملة من شروط الشعر لم يختلف فيها رجال الأدب والنقد ، فان الكلام المجرّد من الصور يدخل في النثر ، ولكن أفلا نجد شعراً إلاّ اذا وجدنا صوراً ، أفلا نرى بعض الغلوّ في هذه الشروط ، أفلا يدلنا تاريخنا الأدبي في مختلف عصوره على شعرٍ منسلخ من الصور ، مقذوف به على سجيته وطبعه دون قليل أو كثير من التنميق ، ومع هذا كله نرى له من الأثر البليغ في القلوب ما لا نكاد نراه للشعر الملتف في أبراد الحبر ؟

يروى أن ابنة لابن الرفاع وقف بباب أبيها قوم يسألون عنه ، فقالت : ما تريدون اليه ؟ فقالوا : جئنا لنهاجيه ، فقالت وهي صبية :

تجمعتم من كل أوب ووجهـة على واحدٍ ، لا زلتم قرن واحد !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هل نعرف بيتاً أشد إبلاماً في الهجاء من هذا البيت في المعنى الذي أرادته صاحبته ؟ ومع هذا فلا نرى فيه تشبيهاً ولا استعارة ، على ما أظن ، وانما هو كلام مجرّد ، مرسل على سجيته ، بلاغته في بساطته ، وقوته في بعده عن مذاهب البلاغة .

ومثل هذا البيت في الطبع بيت آخر ولكنه أقوى منه ، لقوة من قيل فيه :

بنات زياد في القصور مصونة وآل رسول الله في الفلوات !

لمّا قال دعبل هذا البيت لم يلجأ الى باب من أبواب البديع ، وإنما استوحى عظمة البيت من عظمة الأمر الواقع ، وخلق الألم فيه من ألم تشتت آل البيت في الفلوات ، فراشهم الأرض وغطاؤهم السماء ، فان حالةً مثل هذه الحالة في غنى عن كل زخرف ، وتصويرها على بساطتها جدير بأن يستفزّ النفوس لأشدّ ثورة .

وما بي حاجة الى الاستكثار من ذكر الشعر الخالي من الألوان والأشكال في شعر العرب ، العامل في النفوس ما لا يعمله الشعر الملوّن ، فاذا كان لا بدّ في الشعر من الصور فليس معنى ذلك أن الشعر لا يكون إلاّ حيث تكون الصور ، ولو صدق هذا القول لبطل كثير من شعر الفحول من شعرائنا ولا استثني أبا الطيب المتنبي .

من قصائد أبي فراس قصيدته الى سيف الدولة لمّا قيّده الروم بخرشنة فاعتلّت أمه من الحسرة ، فقال في مطلعها :

يا حسرةً ما أكاد أحملُها آخرها مزعج وأوّلُها

إنا نجد في هذه القصيدة الأبيات الآتية :

بأبيّ عذر رددتَ والهةً عليك دون الورى معوّلها
جاءتك تمتاح ردّ واحدها ينتظر الناس كيف تقفلها
سمحتُ مني بمهجةٍ كرمت أنت ، على يأسها ، مؤمّلها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إن كنت لم تبذل الفداء لها فلم أزل في رضاك أبذلها
تلك المودّات كيف تهملها تلك المواعيد كيف تغفلها
تلك العقود التي عقدت لنا كيف، وقد أحكمت، تحلّلها

***

يا واسع الدار كيف توسعها ونحن في صخرة نزلزلها
يا ناعم الثوب كيف تبذّله ثيابنا الصوف ما نبذّلها

في هذه القصيدة، وقد خلا معظم أبياتها من صور الشعر، قامت مقام هذه الصور حركات النفس في أشد فجيعتها، وأكرم عاطفتها، وأبلغ وفائها، وأرق عتابها.

وقد نجد مثل هذا الشعر المجرّد من الصور في أدب الغرب نفسه، فهذا «راسين» المصوّر الكبير للحبّ في شعره، الذي حلّل الحب من جميع وجوهه، وعرض أشكاله المختلفة، حتى عرض حقد الحب، قرّب الشعر من النثر حتى يتاخمه، فلا يستعمل إلاّ الألفاظ والتراكيب العادية في اللغة، حتى ألفاظ الأحاديث وتراكيبها، ولكن الإنسان، مع هذا كله، ينتبع في بعض شعره المجرّد حركات الأهواء على اختلافها، فاذا لقي الحبيب حبيبه في بيت من الأبيات أو مقطع من المقاطع، انكشفت في هذا اللقاء أهواء النفس بأجمعها، فمن هوى مستعد للظهور ثم يخفيه صاحبه، الى هوى مستعد للخفاء ثم تظهره كلمة من الكلمات، ومن جفن يكتم دمعه ثم يبديه، إلى جفن يبدي الدمع ثم يكتمه. إنّا نكاد نسمع الأصوات، ونتصوّر الحركات، نكاد نسمع شهقات النفس، ونرى تهدبات الأيدي والأذرع، فتقوم هذه الحركات كلها، كما تقوم السؤالات والتعجبات مقام صور الشعر.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما هي لغة الشعراء ، إنها لغة الأهواء في أتم نجائمها ، تشيع فيها الحياة ، كأنها جرح من الجراح ، يفيض الدم منه من ثنايا الأصابع قطرةً قطرةً .

***

وسواء أكان الشعر في حاجةٍ الى الصور أم كان بعضه في غنى عن هذه الصور إني أرى أننا لجأنا في حياتنا كلها على اختلاف مذاهبها الى لغة الشعر ، أي الى البعد عن واقع الأمور ، والى الاشتطاط في الخيال ، فلا نكاد نعالج مشكلةً من المشكلات إلاّ تشبهنا بالشعراء في لغتهم فأبعدنا هذا التشبه عن حقيقة الحياة ، وأغرقنا في الأوهام والخيالات . وإذا أفرطت بعض الأمم في حياتها المادية فلجأت في مخاطباتها ومعاملاتها الى لغة هذه الحياة فاني أرى أنا أفرطنا في حياتنا الخيالية فلجأنا في المخاطبات والمعاملات الى لغة الخيال .

وأظن أن إسرافنا في لغة الشعر حتى في حياتنا العامة راجع في الأصل الى خصائص الشعوب السامية ، فان الفكر في هذه الشعوب مختلف بعض الاختلاف عن الفكر في شعوب ثانية ، فالفكر مثلاً في العبري لا يستطيع أن يتجرّد من الصورة المادية التي تستره وتغطيه ، ولذلك فاننا نجد لغة التوراة لغة شعرية ، إلاّ أنها تعجز عن بيان الفكرة المجرّدة ، فالذهن في الأمم السامية عنيد ؛ انه يحتفظ بالصورة ويحرص على طابع الانفعال المادي ، أمّا الذهن في الشعوب الآرية فانه أمرن وألين ، فهو يفسلخ من المادة ويرتفع الى تصور الفكرة المجرّدة وإدراكها . ولعلنا نجد في هذا التباين السبب في شيوع الفلسفة في الجنس الآري ، لأن التجريد من خصائص الفلسفة ، والشعوب الساميه أصحاب خيال ، فهم بعيدون عن التجريد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإذا كان في بعض القواعد العامة شيء من الاستثناء فان الاستثناء الذي يقع في خصائص الشعوب السامية التي أشرت اليها إنما نجده في طائفة من شعراء العرب وعلى رأسهم المتنبي ، فقد استطاع ذهن أبي الطيب أن ينسلخ من المادة ويرتفع الى الصورة المجرّدة ، وفي أكثر هذه الأبيات التي أختم بها مقالي دليل على ما قلت وإن كان بعضها لا يخلو من يسير من لغة الشعر :

هوّن على بصرٍ ما شقّ منظره ... فانما بقظات العين كالحلم
ولا تشكّ الى خلقٍ فتشمته ... شكوى الجريح الى الغربان والرخم
وكن على حذرٍ للناس تستره ... ولا يغرّك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء فما تلقاه في عدةٍ ... وأعوز الصدق في الاخبار والقسم
سبحان خالق نفسي كيف لذّتها ... فيما النفوس تراه غاية الألم
الدهر يعجب من حملي نوائبه ... وصبر نفسي على أحداثه الحُطُم
وقت يضيع وعمر ليت مدته ... في غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته ... فسرّهم وأتيناه على الهرم

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net